الفصل الخامس

المغول والطريق الشمالي الشرقي
The Mongols and the northeast passage

تستمد بعض الوحدات الاقتصادية أهميتها من كونها مركزاً تجارياً ومن ميزتها التنافسية بوصفها أرضاً محايدة تقع على مفترق طرق رئيسة. وكانت تلك أماكن مقصد التجار يأتونها من أماكن نائية للاجتماع وتبادل السلع حيث الأمان لهم في الطريق والحماية لبضائعهم من المصادرة أو من عدم سداد قيمتها. وكما سنرى لاحقاً، فإن هذا الأمن كان متوافراً في مدن أسواق شمبانيا، وميناء عدن، والمدن المنتشرة على امتداد مضيق مالطة، بالإضافة إلى المدن الواقعة على ساحل مالابار إلى حد ما.

أما الوحدات الأخرى مثل بروج وجنت فكانت تتمتع بميزة نسبية في إنتاج بضائع فريدة رائجة في الأسواق. وقد انجذبت هذه المدن إلى الأسواق العالمية بفضل إنتاجها الصناعي. ومع أنها استبدلت دورها هذا بين حين وآخر بالشحن البحري والأعمال المالية، فقد حافظت على مكانتها الاقتصادية بفضل إنتاجها الصناعي حتى حين أحبط الآخرون هذه النشاطات.

شكلت التجارة، والمال، والنقل الدعائم الاقتصادية لدول المدن البحرية. ولولا القوة البحرية العسكرية التي تحمي هذه النشاطات لكانت عديمة القيمة. وتولى البحارة المقاتلون الإيطاليون تدعمهم دولة تجارية مهمة الدفاع عن سفنهم والبضائع التي تحملها، في حين تولى سادة الإقطاع والطبقات الحاكمة البرجوازية على التوالي تقديم

هذه الضمانات في شمبانيا وفلندرة. ولولا هذه الحماية الضرورية لأصبحت ممارسة التجارة ضربا من المستحيل.

أما المغول في القرن الثالث عشر فلم يقدموا لا الموقع الاستراتيجي على مفترق الطرق، ولا القدرة الصناعية على إنتاج بضائع فريدة، ولا وسائط المواصلات للاقتصاد العالمي، بل انحصر دورهم في إيجاد مناخ يلائم النقل البري تقل فيه تكلفة الحماية والمخاطر. ومن خلال تقليص هذه التكاليف، فتح المغول طريقاً للتجارة عبر أراضيهم قضت على احتكار الطرق الجنوبية ولو لمدة قصيرة من الزمن على الأقل. صحيح أن تنظيمهم الاجتماعي والسياسي لم يستطع تغيير التضاريس الوعرة السائدة في آسيا الوسطى وجعلها طريقا سهلة مفتوحة، لكنه استطاع بالتأكيد تغيير مناخها الاجتماعي.

البيئة الاجتماعية والمادية في سهوب آسيا الوسطى

The Physical and Social Environment of The Central Asion's toppes

ذكرت مؤلفات تعود إلى العصور الوسطى في معرض وصفها هذه التضاريس الوعرة أنها أراض قاحلة، قفر خالية من السكان، إلا من قبائل رحل متناثرة هنا وهناك، يسافر فيها المرء أسابيع دون أن يعثر على أية موارد محلية يعتمد عليها. وهكذا نرى أن ماركو بولو قطع الفيافي والقفار في رحلته شرقاً من كرمان إلى مدينة قوبنان Kuh-banan، ثم عبر منطقة صحراوية في ثمانية أيام، وصحراء قاحلة أخرى وراءها لا يسكنها إلا جماعات متفرقة من القبائل الرحل (لاتام Latham، ١٩٥٨م).

ويقدم بلدوتشي بيغولوتي Balducci Pegolotti في دليله للتجار وصفاً مفصلاً لمشاق الرحلة التي تغيرت كثيراً حين وضع مؤلفه ذاك (في حوالي عام ١٣٤٠م) نتيجة السفر الآمن والمحطات المريحة التي أنشئت على الطريق. وينصح بيغولوتي المسافرين بأن يطلقوا لحاهم، ويصطحبوا معهم دليلاً ومترجماً متمكناً والعديد من الخدم (بالإضافة

إلى امرأة توفر الراحة في أثناء الرحلة)، وبأن يتزود بكميات كافية من المؤن في تانا Tana قبل السفر (يول Yule، ١٩٢٤م: ص ٢٩١)، وهذا طبيعي، فالرحلة من تانا إلى أصطراقان Astrakan تستغرق بحسب مخطط سيره خمسة وعشرين يوماً في عربة تجرها الثيران، ثم تحتاج إلى عشرين يوماً أخرى في عربة تجرها الجمال للوصول إلى أورجانسي Organci، وإلى خمسة وثلاثين أو أربعين يوما للوصول إلى أوطرار Otrar على الجمال، وإلى خمسة وأربعين يوماً على ظهور الحمير للوصول إلى أرملك Armalec، ثم إلى سبعين يوماً على ظهور الحمير للوصول إلى كامسو Camexu على حدود الصين، وإلى خمسة وأربعين يوماً للوصول إلى النهر الذي يفضي إلى كاساي Cassai (كنساي Kinsai أو هانغ شو Hangchow) وبعدها إلى ثلاثين يوماً براً للوصول إلى بكين (خانبلك Khanbalik) (يول، ١٩٢٤م، ٢: ص ص ٢٨٧—٢٩٠). وبما أن الطريق كان في قمة الأمان والسهولة حين كتب بيغولوتي دليله هذا،[١] فتخيل ما كانت عليه الأمور قبل هذه "السهولة" وهذا "الأمان"!

كانت هذه التضاريس الوعرة منبت جماعات متعاقبة هجرتها فيما مضى لتنهب الأراضي الثرية. فمنذ أقدم العصور والقبائل الرحل تتدفق من هذه المنطقة الجرداء بحثا عن المراعي الخصبة، والأراضي الشاسعة، والفرصة لامتلاك الفائض الذي تقدمه الواحات الخصبة والمدن التجارية من الادخار البدائي.[٢]

ولم يكن المغول في البداية يختلفون كثيراً عن أسلافهم. وكما هي حال البدو الذين يعيشون على نهب الفلاحين الحضر، فإن اقتصادهم لم يتطور من حياة البدو الرعوية بقدر ما تطور من سلب نوع جديد من القطعان — وهي قطعان البشر. فقد أجبر السكان الحضر الذين هاجمتهم القبائل الرحل على استعمال ما يوفرون من فائض إنتاجهم الزراعي في دفع "الإتاوة" التي تعايش عليها أسيادهم الجدد. وكما ورد في شرح دي راشفيلتز (١٩٧١م: ص ٦٥) فإنه ما إن تكتمل عملية الاستيلاء على مدينة حتى تمارس:

المحكمة سلطة توزيع العائدات التي يجبيها الحكام المغول من الرعية على أقرباء الإمبراطور وطبقة النبلاء. وهكذا نرى أن فتوحات جنكيز خان غيرت المجتمع القبلي البدوي وشبه البدوي إلى نوع من المجتمع الإقطاعي حيث كان قادة الجيوش يجنون ثمار فتوحاتهم دون أن يضطروا إلى التخلي عن أسلوب حياتهم التقليدية.

ولم يكن ذلك نظاماً اقتصادياً أعد لتحقيق الفائض، كما لم يكن نظاماً قابلاً للاستمرار إلى ما لانهاية. وكما يقول راشفيلتز (١٩٧١م: ص ص ٦٦-٦٧)، إن:

الحملات العسكرية المستمرة أبعدت رجل القبيلة العادي عن تربية حيواناته وعن أموره البيئية، وأدت إلى ارتفاع معدل الوفيات وإضعاف أعداد المغول. لذلك زاد اعتماد قادتهم على العبيد في الداخل وعلى الجنود الأجانب في حملاتهم في الخارج. وقد حدثت عمليات طرد للعديد من المدنيين، ولاسيما الحرفيين، في عهد جنكيز خان. وقد أجبر هؤلاء التعساء على ترك مدنهم وقراهم في بلاد فارس وشمال الصين، وأعيد توطينهم في سيبيريا ومنغوليا حيث أجبروا على العمل في الحياكة والمناجم وصنع الأدوات والأسلحة لحساب سيدهم المستبد ... لكن المغول غيروا سياستهم تدريجياً، وركزوا اهتمامهم على استغلال سكان الأراضي المحتلة... وحين انتخب أوغوداي عام ١٢٢٩م، كان من أولى مهامه البحث عن نظام فعال لجباية الضرائب وعمال السخرة من رعاياه... وفي قراقورم كان هناك صينيون يعملون بصفة كتبة وفلكيين، ورهبان مسيحيين ومستشارين أوغريين متفقهين بلغات آسيا الوسطى وغربها ممن يمارسون أعمال التجارة لصالح المغول. وبفضل هؤلاء أسس أغوداي في عام ١٢٣١م أمانة للدولة مهمتها إدارة إمبراطوريته الشاسعة. وقد تم إدخال نظام جديد لجباية الضرائب ... وإقامة شبكة معقدة من محطات نقل البريد...

ومن صعوبات استخدام الإتاوة في دعم الدولة أن السبيل الوحيد لزيادة العائدات هو زيادة الضرائب على الرعية أو توسعة المساحات التي يمكن جباية الفائض منها. وبناء على نصيحة بعض التجار في البلاط حاول أوغوداي تلبية احتياجات البلاط المتزايدة للسلع والثروة من خلال زيادة الضرائب (دو راشفيلتز، ١٩٧١م: ص ٨١) لكنه اختار أيضاً استراتيجية أخرى وهي استئناف هجومه على الصين عام ١٢٣٠م. وفي عام ١٢٣٤م، كان قد احتل مملكتي هسي – هسيا Hsi-Hsia وشين Chin في شمال الصين

مما جعل المغول يقفون وجهاً لوجه أمام إمبراطورية سنغ Sung التي كانت تحكم النصف الجنوبي. وفي عام ١٢٣٥م أعلن أوغوداي الحرب على السنغ (دو راشفلتز، ١٩٧١م: ص ٦٨).

ومن مساوئ الإتاوة أيضا أن المبالغة في سرعة الاستغلال والظلم قد "يقتل البقرة" ذاتها. وهذا ما حدث بالفعل في روسيا. فهناك (دي راشفلتز، ١٩٧١م: ص ٨٣)

استمر نير التتار قرنين ونصف من الزمن. وخلال السنوات المائة الأولى من سيطرة المغول، كان على الرعايا الروس دفع إتاوة باهظة إلى القبيلة الذهبية .... وقد دفع هذا الاستغلال الاقتصادي بالروس إلى عصور الظلام الثقافي.

لكن المغول لم يعتمدوا على الفتوحات الخارجية وحسب، بل كانوا يجنون الأرباح من التجارة التي تعبر أراضيهم. صحيح أن تلك المنطقة بقيت مجهولة بالنسبة إلى الأوروبيين حتى بدية حملات الاكشاف في منتصف القرن الثالث عشر، لكن هذا لا ينطبق على مواطني الشرق الأوسط الذين لم تختف تجارتهم تماماً على الإطلاق. فحتى قبل توحيد طريق التجارة في آسيا الوسطى على يد المغول، كانت قوافل التجار المسلمين واليهود تعبر تلك الأراضي الخطرة بانتظام (لومبارد، ١٩٧٥م: ص ص ٢٠٤-٢١١). وهكذا يصف ابن خورده ذابة في النصف الثاني من القرن التاسع كيف أن التجار ..... اليهود كانوا صلة الوصل بين المناطق التي ازدادت تكاملا في القرن الثالث عشر. وينتقل جويتين (١٩٤٦م ب: ص ١٠٦) مقطعا ذا صلة من هذا المصدر الأولي:

هؤلاء التجار اليهود يتكلمون العربية، والفارسية، والرومية [أي اليونانية...] وهي لغات الفرنجة... كما يتكلمون لغات أهل الأندلس ولغات العبيد، ويسافرون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب برا وبحرا فيركبون السفن من أراضي الفرنجة في البحر الغربي (البحر المتوسط) قاصدين فاراما (بالقرب من قناة السويس حالياً) حيث يسافرون في البحر الشرقي (المحيط الهندي) نحو الهند والصين...

ويتضح لنا من أوصاف ابن خورده ذابة الأخرى أنهم سلكوا أيضاً الطريق البري ذاته عبر آسيا الوسطى الذي يسير في أراضي اليهود الخزر ومنها إلى الصين. ويرى

جواتين (١٩٦٤م ب: ص ١٠٧) أن هؤلاء الرحالة التجار كانوا يسلكون هذه الطرق قبل العصر الإسلامي.

وبعد الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر في القرنين الثامن والتاسع، أصبحت آسيا الوسطى أكثر أمنا وراحة للتجار القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ففي أوقات السلم كانت التجارة النشطة والمربحة تسلك طريق القوافل ذهاباً وإياباً دون انقطاع. وكانت سمرقند بالطبع ملتقى الطرق البرية سواء القادمة من الهند نحو الشمال، أو من البحر الأسود نحو الشرق عبر القوقاز، أو نحو الغرب من الصين (انظر التالي).

ومع ذلك، كان من الممكن أن تنقطع الطريق لأسباب عدة. فتوزع السيطرة على المنطقة بين عشرات، بل مئات الجماعات القبلية، التي كانت كل واحدة منها تنافس الأخرى على انتزاع فائض مغر من عدد محدود من الواحات الثرية أدى إلى استمرار الحروب بهدف الاستيلاء على الأرض. وفي كل مرة، كان أمن الطريق الذي تعتمد عليه تجارة القوافل يتعرض للتهديد، وكثيراً ما كان يفقد . أضف إلى ذلك، أن طلب المال نظير الحماية كان يصل أحياناً إلى مستويات باهظة نظراً لكثرة المجموعات التي تحرس أجزاء بعينها من الطريق.

وعلى الرغم من كل هذه الأخطار والتكاليف، استمر التجار المسلمون في نقل البضائع الثمينة من الغرب إلى الشرق وبالعكس. وتتضح أهميتهم من حادثة وقعت في بداية حملات جنكيز خان الأولى التي شنها باتجاه الغرب. في ذلك الوقت كانت بلاد ما وراء النهر تابعة لملك خوارزم المسلم الذي كان جنكيز يحسب له حساباً، وهو شعور متبادل ولأسباب وجيهة دون شك. فكل حاكم كان يحاول استرضاء الآخر، أو على الأقل "اختباره"، فيرسل له قوافل يقودها تجار يحملون كميات هائلة من "الهدايا." ومن اللافت أن كلا من هذه القوافل كانت تتألف من تجار مسلمين حسبما يقال (بارتهولد،

Barthold ١٩٢٨م: ص ص ٣٩٥–٣٩٨ بناء على المصدر الأصلي، جوفايني Jovaini). لكن هذا التبادل كان مجرد مهلة لكسب الوقت، إذ أقدم جنكيز خان على غزو خوارزم وأنزل بها الهزيمة حين انطلقت جحافله غرباً.

لقد أدى توحيد هذه المنطقة الشاسعة تحت سيطرة المغول إلى تقليص عدد جامعي الإتاوات الذين ينافس بعضهم بعضاً على امتداد الطريق، وعزز الأمن والسلامة في السفر، لا بالنسبة إلى قوافل التجار المسلمين واليهود المعهودة الذين اعتادوا قطع آسيا الوسطى وحسب، بل بالنسبة إلى التجار الإيطاليين البواسل الذين انضموا إليهم وهم يتنافسون على جني المكاسب من حكام المغول المعروفين بسخائهم والمولعين بالكسب[٣].

وعلى النقيض من معرفة المسلمين الدقيقة بهذه المناطق النائية، كان الأوروبيون حديثي العهد بالنظام العالمي السائد، ويتجاهلون التجار الموجودين قبلهم بسبب ازدرائهم لهم، فقد كانوا يرون أنفسهم من كبار المغامرين "المكتشفين" لبلاد وشعوب جديدة. فأوائل الكتّاب الأوروبيين الذين دفعهم حب المغامرة إلى زيارة أراضي المغول كتبوا حكايا لا يمكن تصديقها (وغالباً ما كانت غير معقولة) ليقرأها مواطنوهم في بلادهم بشغف بالغ. وسرعان ما تبع التجار الإخوة الرهبان على أمل الانضمام إلى اللعبة. ويجب أن نذكر أنهم حين عبروا طريق آسيا الوسطى العظيم للمرة الأولى متجهين نحو كاثي Cathay في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، وعادوا وفي جعبتهم حكايات عجيبة عن أراضي الثراء الفاحش والتجارة الرائجة كانوا في حقيقية الأمر يصفون نظاما من التبادل الدولي كان موجودا من قبل، وهو النظام الذي طرد منه التجار اللاتين قبل فترة من الزمن باستثناء مراكزهم على البحر الأسود. وسوف ننتقل الآن إلى دخول أوروبا هذا.

تقلص جهل الأوروبيين بالمغول

Rrducing Europe's Ignorance of The Mongols

صحيح أن موت أوغوداي في عام ١٢٤١م أبعد خطر الغزو المغولي المباشر عن أوروبا، لكن هذا الخلاص المعجز لم يفلح في زيادة معرفة الأوروبيين لا "بالبرابرة الجدد" ولا بالأرض التي انطلقوا منها. وبالفعل، كان المغول ينسبون أصلاً إلى تلك المنطقة الأسطورية بمخلوقاتها الغريبة التي تسكن عالم آسيا المجهول. وبناء على خطأ في فهم كلمة "التتار" (وهو اسم إحدى المجموعات القبلية التي انضمت إلى الاتحاد المغولي فيما بعد) فقد أطلق على المغول اسم التتار نسبة إلى إقليم *ترتاروس Tartarus* أو الجحيم الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس.[٤] ومن الصعب أن ترى، في الوقت ذاته، كيف يمكن للأوروبيين التطلع إلى هؤلاء على أنهم حلفاء المستقبل للمسيحيين في حربهم المقدسة على المسلمين. ومع ذلك، فإن من الممكن تعبئة هذه المخلوقات من أراضي يأجوج ومأجوج (وهي محاولة ضعيفة أخرى لتحديد أصلهم) للانضمام إلى صراعهم.

عانى الأوروبيون من جهل مطبق بالشرق، وهذا دليل بسيط على مدى العزلة التي كانت أوروبا تعاني منها عن النظام الذي تحاول الانضمام إليه. ولا عجب في هذا البتة. فإذا كان الرومان في العصر الكلاسيكي، وهم أصحاب العلاقات التجارية مع الشرق الأقصى وكانوا في بداية العصر المسيحي يستوردون منه البضائع، ظلوا على جهلهم بشركائهم في التجارة، فما بالك بأوروبا في العصور الوسطى وهي التي ظلت معزولة عن العالم لمئات السنين؟

ومن المفيد — والمسلي في الوقت ذاته — أن نعود إلى الوراء إلى العصر الكلاسيكي لنرى شدة انحدار المعرفة الرومانية كلما اتجهنا شرقاً. فمع أن الحرير الصيني كان يصل إلى روما بانتظام من خلال الوسطاء الشرق أوسطيين، فإن الخرافة التي تقول إن "الصينيين يسحبون الحرير من خيط ينمو على أوراق أشجارهم "ظلت هي

السائدة." (فيرجل Virgil، كما ورد في راشفلتز، ١٩٧١م: ص ٢١؛ و يول، ١٩١٣م :١ : xliv) كما لم يكن الصينيون – والحق يقال – أعلم بأمور المنسوجات التي يستوردونها من الشرق. فباعتقاد الصينيين في هان Han أن القطن "يصنع من الشعر المستخلص من "غنم الماء" (دوراسفيلتز، ١٩٧١م: ص ٢٣). أما بالنسبة إلى المواطنين الروم في عهد تراجان Trajan فلم تكن الهند مصدر "اللؤلؤ والأحجار الكريمة، والخشب العطري، والتوابل وحسب، بل كانت أيضاً موطنا لرجال لهم رؤوس كلاب ... أو بقدم واحدة أو بأكعاب في الأمام ... إنها بلد أناس لا أفواه لهم... " (دي راشفيلتز، ١٩٧١م: ص ٢٢). أما صينيو هان فكانوا متأكدين، على عكس الرومان، من أن هذه المخلوقات الخرافية تسكن عالم البحر المتوسط.[٥] وقد حفلت المعلومات الجغرافية وقصص الرحلات التي وضعها الجغرافيون المسلمون في القرن التاسع وما بعده بالحكايات ذاتها حول جزر المحيط الهندي التي يسكنها أناس عراة لا رؤوس لهم وتشبه وجوههم وجوه الكلاب. ويبدو أن من المشروع استخدام هذه الصور الخيالية باعتبارها دلالات على الفجوات التي كان لا بد من منها خلال القرن الثالث عشر حين بدأ الناس في أصقاع نائية يتصل بعضهم ببعض بشكل مباشر.

وقد مست الحاجة بالتأكيد، بعد وصول أنباء عن اقتراب المغول من أوروبا، الحاجة إلى معلومات دقيقة لأسباب عملية جدا رغم شح تلك المعلومات حتى ذلك الحين. وادعى الحاخام بنيامين التيوديلي Benjamin of Tudela لدى عودته إلى إسبانيا عام ١١٧٣م أنه سافر إلى الهند والصين، مع أن معظم المؤرخين يشكون في أنه وصل إلى الشرق الأقصى، وفي كل الأحوال، فإن رحلته بهدف زيارة الجاليات اليهودية لم تكن رحلة برية بالدرجة الأولى. لكن الأهم بالنسبة إلى المسيحيين المعاصرين كانت الشائعات الخرافية حول مستعمرة مسيحية في الهند تحت زعامة كاهن يدعى برستر جون Prester John تبين أنها غير موجودة أصلا.[٦] وقد كان الصليبيون تواقين للعثور

على حلفاء طبيعيين في الشرق لدرجة أن البابا أمر أول مبعوث غربي له إلى الشرق عام ١١٧٧م بالبحث عن برستر جون! أما المبعوث فلم يفشل في العثور على ملك الهند المسيحي وحسب، لكنه هو ذاته اختفى ولم يعثر له على أثر (دي راشفيلتز، ١٩٧١م: ص ١٩). لكن إذا كان الهدف هو زج المسيحيين الهنود أو المغول الآسيويين في الصراع ضد الأيوبيين، فقد كان من الضروري إرسال المزيد من بعثات الاكتشاف.

المبعوث البابوي

في عام ١٢٤٥م أرسل البابا إنوسنت الرابع Innocent IV أولى البعثات التبشيرية الجادة إلى المغول، وضمت راهباً دومينيكانياً هو سيمون الكوينتيني Simon of Saint Quentin (انظر جوزمان Guzman ١٩٨٦م)، وراهباً فرنسيسكانياً يدعى جون الكاربيني John of Pian di Carpine (انظر راشفيلتتر، ١٩٧م : ص ص ٨٤–٨٩). وتشكل تقاريرهما أولى القصص الأوروبية عن الرحلات إلى آسيا الوسطى. أما جون الكاربيني الذي أعطي تعليمات بالتوجه إلى البلاط المغولي لتسليم رسائل البابا فقد غادر ليون يوم أحد الفصح من عام ١٢٤٥م ولم يعد من منغوليا إلا بعد سنتين ونصف. وهناك أجزاء من تقريره المفصل الذي قدمه إلى البابا (وعرف فيما بعد "بتاريخ المغول") مضمنة في كتاب فنسنت البوفيزي Vincint of Beauvais وعنوانه Speculum historiale (دي راشفيلتز، ١٩٧١م: ص ص ٨٨–٨٩). أما سيمون الكوينتيني فقد وضع تقريره حين عاد عام ١٢٤٨م، وهناك أيضا مقاطع منه في كتاب التاريخ للبوفيزي (جوزمان، ١٩٦٨م : ص ص ١ – ٤، ص ص ٧٠–٧٦) ومع أن التقريرين كليهما حفلا بالمغالطات والأخبار المنحازة (ولا عجب في ذلك، لأن المبعوثين عوملا في معسكر المغول معاملة الأسرى لا معاملة المبعوثين) لكنهما شكلا المعلومات التي بنى عليها الأوروبيون أحكامهم عن المغول لأنهم لم يعرفوا إن كانوا أعداء أم حلفاء.

لكن تقرير وليم الرويروكي William of Rubruck كان أكثر دقة، ولو أنه بعيد عن الصدق أيضاً. أما وليم هذا فكان راهباً فرنسيسكانياً سافر إلى منغوليا في ١٢٥٣ – ١٢٥٥م. [انظر ترجمة روكهيل Rockhill في سلسلة Hakluyt رقم ٢، (١٩٠٠م)، التي حل محلها دوسون، ١٩٥٥م، أعيد طبعها عام ١٩٨٠م: ص ص ٨٩–٢٢٠]. ولد الراهب وليم في فلندرة الفرنسية بين عامي ١٢١٥ و ١٢٢٠م وانضم إلى سنت لويس عام ١٢٤٨م في حملته الصليبية على مصر، وظل معه في فلسطين حتى عام ١٢٥٢م. وسافر من فلسطين بمبادرة شخصية على ما يبدو إلى كاثي ودوّن ملحوظات وافرة حول "طبائع السكان المحليين وعاداتهم" ولاسيما فيما يخص طقوسهم الدينية. ولما عاد من منغوليا ذهب إلى باريس حيث قابل روجر بيكون الذي أبدى اهتماماً شديداً بتجاربه، وقد ذكره بيكون مطولاً في كتابه "العمل الكبير Opus Majus الذي يعد بحق "المرجع المعاصر الوحيد الذي نملكه عنه" (دوسون، ١٩٥٥م ، أعيد طبعه ١٠٨٠م: ص ص ٨٨–٨٩).

إننا نعلم أن الراهب وليم انطلق برا من البحر الأسود في ربيع عام ١٢٥٣م، وسرعان ما وصل إلى أول معسكر مغولي. ورغم ما لقيه من سوء المعاملة، إلا أنه تابع رحلته شرقاً. ويتحدث الراهب عن أول انطباع أوروبي عن أهالي الشرق (دوسون، ١٩٥٥م، طبعة عام ١٩٨٠م: ص ص ١٤٣–١٤٤).

> المغول أناس قصار القامة، سمر البشرة مثل الإسبان؛ ويلبسون رداء يشبه التنكل الذي يلبسه شماس الكنيسة وله أكمام أضيق قليلاً، كما يعتمرون على رؤوسهم قبعات تشبه تاج الأسقف ... بعد ذلك وصلنا إلى كاثي العظيمة التي كان سكانها يسمون بالسير Seres ومن عندهم تأتي أبهى صنوف الحرير ... أما سكان كاثي فقصار القامة، وحين يتكلمون يتنفسون تنفساً عميقاً من أنوفهم ... وفتحات عيونهم صغيرة أيضاً. وهم بارعون في الحرف اليدوية، أما أطباؤهم فلديهم معرفة كبيرة في قوة الأعشاب، ويستطيعون تشخيص الأمراض بذكاء بالغ من النبض ... وهناك كثير منهم في قراقورم... أما النسطوريون والمسلمون العرب فيعيشون بينهم كالأجانب حتى كاثي ...

ويبدو لنا بشكل واضح مدى جهل الأوروبيين بالشرق من سذاجة وليم الربروكي وهو يقدم لنا الوصف التالي لمصدر الصباغ الأحمر الذي تشتهر به الحرائر الصينية، ونورد هنا الترجمة التي ظهرت في دوسون (١٩٥٥، ١٩٨٠م : ص ١٧١):

ذات مرة جلس بقربي كاهن من كاثي يرتدي قماشاً زاهي اللون، وحين سألته من أين جاء بذلك اللون أخبرني بأن في الطرف الشرقي من كاثي جروفاً صخرية عالية تعيش قربها مخلوقات تشبه الإنسان في كل شيء إلا أنها لا تحني ركبها عند المشي بل تقفز قفزاً في سيرها... ولا يزيد طول هذه المخلوقات على ذراع واحد، أما أجسامها فيكسوها الشعر ... وحين يذهب الرجال لصيدها فإنهم يحملون معهم شراباً مسكراً يدعى (ميد)، فينصبون مصائدهم بين الصخور على هيئة أكواب تملأ بالميد.... بعدئذ تخرج هذه المخلوقات من كهوفها وتتذوق المشروب وتصيح "تشن تشن"، وهذا هو سبب تسميتها باسم التشنتشان. بعد ذلك تتجمع هذه المخلوقات بأعداد غفيرة وتحتسي الميد فتسكر وتستسلم للنوم ... فيأتي الصيادون ويربطونها من أيديها وأقدامها في أثناء نومها، ثم يفتحون ثغرة في أعناقها ويستخرجون ثلاث أو أربع قطرات من دمائها ... وذلك الدم، كما قيل لي، هو الأفضل للصباغ باللون الأحمر القرمزي.

هذا هو إذن أول اكتشاف أوروربي لكاثي أو لروح الدعابة عند سكانها!

لكن هذا الجهل بدأ في الانحسار بعد بضعة عقود وذلك بفضل تجار البندقية الذين ساروا على خطى البعثات التبشيرية البابوية والتجار الجنويين الذين لم يبلغوا مبلغ ماركو بولو الشهير في الولع بالحديث والروي، لكنهم كانوا على ما يبدو أكثر نجاحا في أعمال التجارة. فبفضل مواقعهم على البحر الأسود، التي كانت امتدادات للقسطنطينية وحسب، كان التجار الإيطاليون أول من تأقلم مع الغزاة المغول، ومن المؤكد أنهم ستخدموا بضائعهم لإغراء غزاة المستقبل بإقامة علاقات معهم. لكن تقدمهم في أعماق أراضي المغول لم يتحقق قبل اعتلاء كوبلاي خان عرش الإمبراطورية.

مغامرة الأخوين بولو

مما لا شك فيه أن أول المغامرين من التجار الأوروبيين الذين نملك عنهم سجلات والذين عبروا الأراضي المغولية وسلكوا الطريق البرية نحو كاثي هما الأخوان

نيكولو ومافيو بولو Niccolo and Maffeo Polo. فقد غادر الرجلان مدينة القسطنطينية عام ١٢٦٠م، وقد منعتهما حذاقتهما من الإفصاح مجانا عن اكتشافاتهما فيما يخص إمكانات التجارة العظيمة. وانطلق الأخوان في رحلة ثانية أطول من الأولى عام ١٢٧١م، واصطحبا معهما هذه المرة ابن نيكولو الأصغر ماركو، ولم يعودا إلى البندقية حتى عام ١٢٩٥م (بيتك Petech ١٩٦٢م: ص ٥٥٣). ولقد نشر الكثير مما تم اكتشافه عن المغول بصفة عامة وفي رحلاتهم بصفة خاصة، في مذكرات كتبها بعد ذلك بسنوات أحد زملاء ماركو بولو وهو سجين في جنوة إثر وقوعه في الأسر في إحدى المعارك البحرية المتكررة بين جنوة والبندقية. أما الدعاية الجوفاء التي تقدم المذكرات فلا تفيد في درء الشكوك في أن جزءا من محتوياتها على الأقل، مبالغ فيه لكي يجتذب الجماهير. فالكاتب، إدراكاً منه لقلة ثقافة الناس، يدعو الجماهير قائلا:

أيها الأباطرة، والملوك، والنبلاء، والفرسان، والمواطنون، والناس قاطبة ممن يرغبون في معرفة مختلف أعراق البشر وخصائص مختلف بقاع الأرض، خذوا هذا الكتاب ودعوا أحدهم يقرأه على مسامعكم (لاتام Latham، ١٩٥٨م: ص ٢١).

يبدأ الكتاب والأخوان الكبيران نيكولو ومافيو بولو قد أبحرا شرقاً في البحر الأسود نحو صدوق Suduk، وهي إحدى مستعمرات البندقية، ومنها انطلقا براً حتى وصلا في نهاية الأمر إلى بلاط خان القبيلة الذهبية. وقد استقبلهما بيركه الخان الثالث استقبالاً مشرفاً وقبل الجواهر التي قدمها إليه الأخوان، وقدم إليهما في المقابل "سلعاً تبلغ قيمتها ضعفي قيمة الجواهر" وسمح لهما ببيعها ... بربح وافر" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٢٢). لكن إقامتهما في أرض بيركه قطعت بشكل غير لائق بعد ذلك بسنة على أثر نشوب حرب بين بيركه وهولاكو انتصرت فيها قوات الأخير. ولما كان طريقهم إلى القسطنطينية غير سالك بسبب الصراع، انطلقا شرقاً، وبعد مسيرة سبعة عشر يوماً في الصحراء، وصلا إلى بخارى. وقد دهش مبعوث هولاكو لرؤية الأخوين في بخارى حين

وصلها بعد ذلك بثلاث سنوات وهو في طريقه إلى كوبلاي خان "إذ لم يسبق أن شوهد لاتيني في تلك البلاد من قبل قط." ولما علم أنهما تاجران، دعاهما إلى مرافقته إلى الخان الذي لم يسبق له أن رأى لاتينياً من قبل، ويتوق إلى التعرف على أحدهم" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٢٣). وهكذا وصل الأخوان بولو إلى بلاط كوبلاي خان تحت حماية مبعوث هولاكو الخاص. وقد أبدى الخان اهتماماً عظيماً بمعرفة المزيد عن الغرب وعن المسيحية.[٧] واقترح أن يكونا مبعوثيه إلى البابا ليطلبا منه إرسال مائة كاهن وبعض الزيت من مصباح كنيسة القيامة في القدس (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٢٤). (ولا يملك المرء إلا أن يتساءل عن مدى صحة هذه الطلبات الغريبة)!

وانطلق الأخوان بولو مرة أخرى براً ومعهما لوح ذهبي يحمل خاتم الخان لضمان سلامة عبورهم أراضي الإمبراطورية المغولية، فوصلوا عكا بعد ثلاث سنوات. في تلك الأثناء، كان البابا قد مات، ولم ينتخب من يخلفه بعد، فقرر الأخوان العودة إلى البندقية لزيارة أهلهما. في تلك الأثناء كانت زوجة نيكولو قد ماتت وتركت له ولداً يدعى ماركو يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، وهو الذي صحب الأخوين حين عادا إلى عكا بعد ذلك بسنوات. وبعد اختيار البابا الجديد، بدأ الأخوان بولو والشاب ماركو رحلة العودة مرة أخرى إلى عاصمة الخان وهم يحملون الهدايا والرسائل ومعهم اثنان من الكهنة فقط، وهذا أقل بكثير من المائة كاهن المطلوبين. ومع أن هذين الكاهنين الخائفين راغا منهم، إلا أن الأخوين وماركو بولو استطاعوا إكمال الرحلة في ثلاث سنوات ولقوا في بلاد الخان ترحيباً حاراً، ومكثوا فيها سبع سنوات قام خلالها ماركو بخدمة الخان وكثيراً ما سافر باسمه.

ومن هنا نتبين أن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مقاييسه الجغرافية فيما يخص ملحوظاته حول الأقاليم الشرقية تعتمد على أسس صحيحة. فهي بالتأكيد أدق بكثير من أية أوصاف سابقة. فاهتمام وليم الروبروكي انحصر بالدرجة الأولى في الطقوس

الدينية التي يمارسها الأغراب الذين قابلهم، في حين أن ماركو بولو حذا حذو والده في ملاحظة ما يصنع الناس، وما يتجارون به، وبما له قيمة تجارية. ويقدم ماركو في وصفه صورة لبلاد المغول يبين أن فيها مزارعين أثرياء، ومنتجين صناعيين مهرة، والعديد من التجار الأغراب (الذين يحط ماركو من قدرهم في ملحوظة جانبية قصيرة قائلا إنهم "ليسوا سوى مسلمين"!

ويتبع ماركو في تقريره الطريق من الغرب إلى الشرق. وفي تركيا يبدي إعجابه الشديد "بأجمل أنواع السجاد في العالم (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٣٣)، ووراءها أراضي الجورجيين حيث "ينتج الحرير ... بكميات وفيرة، وأجمل الأقمشة الموشاة بالذهب في العالم ... وهناك كميات وافرة من كل شيء، فالتجارة رائجة والصناعة متقدمة (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٣٣). ويصف ماركو الموصل وبغداد بأنهما مدينتان مزدهرتان (لاتام، ١٩٥٨م: ص ص ٣٦-٤٠) حتى بعد أن دمرهما هولاكو، وينقل ما سمعه من الناس حول هذا الموضوع. لكن تبريز هي التي استحوذت على إعجابه. فالمدينة لا تنتج كميات كبيرة من الحرير والأقمشة المذهبة وحسب، بل هي مدينة تجارية عظيمة أيضاً، "وتتمتع بموقع ممتاز يجعلها سوقا للبضائع من الهند وبغداد، ومن الموصل وهرمز ...كما يأتيها الكثير من التجار اللاتين لشراء البضائع المستوردة من البلاد الأخرى، بالإضافة إلى أنها سوق للأحجار الكريمة ... ومدينة يحقق فيها التجار الرحالة الربح الوفير" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٤٣). ويصف ماركو بلاد فارس بأنها بلاد ثرية تزدهر فيها التجارة والصناعة. "يصنعون الأقمشة المذهبة والحريرية من كل نوع، والقطن ينمو فيها بكثرة، ولا تعاني نقصاً في القمح أو الشعير أو الدخن أو *البنيك* (نبات عشبي من الفصيلة النجيلية) أو في أي نوع من أنواع الذرة، هذا بالإضافة إلى توافر النبيذ وسائر أنواع الفاكهة" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٤٧). أما في كرمان، فيستخرج حجر الفيروز ومعه "الفولاذ" (وردت هكذا) والأوندانيق Ondanique "إن الناس ... يصنعون ... كل ما يحتاج

إليه المقاتل الفارس مثل اللجام، والسرج، والمهماز، والسيوف، والأقواس، والكنانات، وجميع أنواع الأسلحة الأخرى" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٤٧) كما أن النساء توشين الحرير "بالحيوانات والطيور وبأشكال كثيرة أخرى" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٤٨). وإذا ما قطع المرء سهلاً شاسعاً، وصل إلى الخليج عند ميناء ممتاز يقال له هرمز. "يأتي التجار إلى هذا الميناء من الهند يحملون كل أنواع التوابل والأحجار الكريمة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية والمذهبة وعاج الفيل وكثيراً من البضائع الأخرى... إنه لمركز عظيم للتجارة (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٥١).

وبدلاً من أن يصف ماركو هنا الطريق البحري إلى الهند، يتجه وصفه شمالاً من كرمان إلى منطقة قاحلة يحتاج اجتيازها إلى عدة أيام قبل الوصول إلى مدينة قوبنان Kuh - banan حيث يصنعون المرايا الفولاذية بأحجام كبيرة وبأنواع ممتازة" (لاتام ١٩٥٨م: ص ٥٤). وبعد قوبنان تظهر صحراء أخرى يحتاج اجتيازها إلى ثمانية أيام. أما السكان على امتداد الطريق بأكمله فهم مسلمون يعيشون في الواحات المنتشرة في طول الصحراء وعرضها. ومع أن ماركو يعدد كثيرا من هذه المدن والقرى، لكنه لا يصف أياً من منتجاتها، ويحط من شأن سكانها قائلاً إنهم ليسوا سوى أنصاف متحضرين. وبعد عبور صحراء أخرى، يصل إلى كان تشو Kan - Chou، وبعدها إلى "بلاد كاثي" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٤٨).

لكن ما يثير الاهتمام في وصفه هو الجزء المتعلق بكاثي ذاتها بما في ذلك تملقه لراعيه كوبلاي خان، حيث يصفه قائلاً: "إنه أكثر الناس حكمة وقوة في النواحي كافة؛ إنه أفضل حاكم للرعية وللإمبراطورية، ورجل يتمتع بأفضل الخصال التي عرفها تاريخ التتار كله" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ١٠٢) وفي موقع مدينة خانبلك القديمة، بنى كوبلاي مدينة جديدة لتكون عاصمة له أطلق عليها اسم تايدو Taido. وبما أنها اليوم بكين، فإننا نقتبس مقتطفات مطولة من وصفه لها لأن فيها شبهاً كبيراً بالمدينة والقصر العظيم اليوم.

بنيت تايدو على شكل مربع أضلاعه متساوية ويبلغ محيطه أربعة وعشرين ميلاً، ويحيط به سور ترابي فيه فرج علوية ومطلي بمادة كلسية بيضاء. وللمدينة اثنتا عشرة بوابة، يعلو كلاً منها قصر ضخم ... أما الشوارع فعريضة ومستقيمة جداً حتى إن باستطاعة الواقف على أعلى إحدى البوابات أن يرى البوابة المقابلة في نهاية الطريق الممتد أمامه. وتنتشر المحلات التجارية من الأنواع كافة على جانبي الطرقات من بدايتها حتى نهايتها.... والمدينة بأكملها مخططة على شكل مربعات تشبه لعبة الضامة ... (لاتام، ١٩٥٨م: ص ١٠٦).

ومما يذكر أن أهم عبارة في وصف ماركو بولو لمدينة بكين هي العبارة التي فاتته دلالة مضمونها. فهو يقول إن عدد سكان الضواحي يماثل عدد سكان المدينة المسورة ذاتها، وإن في كل حي من أحياء الضواحي كثيراً من الفنادق التي تقدم المسكن للتجار القادمين من مختلف الأصقاع؛ حيث يخصص فندق لتجار كل بلد من البلدان ... لأن التجار وغيرهم يأتون إلى المدينة بأعداد غفيرة لأنها مقر الخان ولأن فيها سوقاً تعود عليهم بالربح الوفير" (لاتام، ١٩٥٨م: ص ص ١٠٦-١٠٧).

لكن من هم هؤلاء التجار القادمون من "كافة الأصقاع" الذين يسكنون في فنادق الضواحي المخصصة لهم؟ من المؤكد أنهم ليسوا من التجار الهنود لأن ماركو بولو يؤكد مراراً وتكراراً أن أسرته فريدة من نوعها! وواضح من دلائل أخرى أن هؤلاء التجار الأجانب مسلمون جاؤوا من شتى أنحاء المناطق الداخلية المهمة من النظام العالمي في القرن الثالث عشر. فبلاد الخان ليست جديدة بالنسبة إليهم لأنها جزء لا يتجزأ من عالمهم. وبالفعل يمضي ماركو بولو في روايته قصة أحمد، وهو حاكم مسلم في مدينة منحه الخان سلطة الحكم فيها طيلة اثنين وعشرين عاماً!

هذه المقاطع تكفي لشرح نقطة مهمة. فالتجار الأوروبيون اجتازوا طريق آسيا الوسطى العظيم إلى كاثي في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، وجلبوا معهم في أثناء عودتهم قصصاً عجيبة عن أراض غنية، وتجارة رائجة، وعن نظام سائد من التبادل التجاري العالمي أقصي عنه التجار اللاتين حتى ذلك الحين. وفي العقود التالية

سار كثير منهم على خطى الأخوين الشاب بولو. لكن رغم النشاطات الواسعة التي حدثت فيما بعد، لم يصلنا سوى القليل من التقارير المكتوبة ليس بينها ما ينافس تقارير ماركو في دقة تفاصيله، وليس لدينا ما يثبت أن التجار الإيطاليين مارسوا التجارة على هذا الطريق الشمالي حصرا سوى الدليل الذي وضعه فرانسيسكو دي بلوتشي بيغولوتي Francesco de Balducci Pegelotti في العقد الرابع من القرن الرابع عشر حين أوشك هذا الطريق على أن يغلق.

التجار الإيطاليون في إمبراطورية المغول

يقدم لنا لوسيانو بيتك Luciano Petech[٨] بعض التفاصيل النادرة عن التجار الإيطاليين الذين شغلهم جمع المال عن كتابة مذكراتهم. وبحسب رواية بيتك (١٩٦٢م: ص ص ٥٤٩-٥٥٢) فإن السلام المغولي Pax Mongoloica والأمن في السفر لا يفسر أسباب ازدهار التجارة بين الشرق الأوسط ومنغوليا تفسيراً كاملاً. فعلو شأن التجارة جاء أيضا نتيجة الثورة التجارية التي أرسلت التجار الإيطاليين في مهمات واسعة بما فيها المهمات إلى إمبراطورية المغول (مع أن معظم التجار الأوربيين كانوا آنذاك يفضلون الطريق البحري عبر الخليج العربي). أما السلعة الأولى في تلك التجارة فكانت حرير كاثي الذي دأب تجار جنوة على بيعه في أسواق شمبانيا الموسمية منذ عام ١٢٥٧م. ومن اللافت أن هذا الحرير لقي رواجا في أوروبا بشكل خاص، لأنه كان حتى في ذلك الحين أرخص من حرير بلاد فارس وتركستان. ومما يدل على احتلال التجار الجنويين مركز الصدارة في التجارة مع الصين استخدام دليل بلدوتشي بيغولوتي التعبيرات الجنوية في الأوزان والمقاييس في وصفه الطريق البري إلى كاثي.

وكثيراً ما كانت البعثات التجارية والدينية و"السياسية" تختلط بعضها مع بعض؛ وهكذا نرى أن تاجراً يدعى بطرس اللوقالوني Peter of Localongo رافق راهباً يدعى جون المونتي كورفيني John of Monte Corvino إلى كاثي. وقد غادر الراهب الإيطالي

تبريز في بلاد فارس عام ١٢٩١م، وأمضى ثلاثة عشر شهراً في الهند قبل أن يلتقي بالتاجر الذي رافقه إلى الصين (لوبيز، Lopez، ١٩٤٣م: ص ١٦٥؛ دوسون، ١٩٥٥م، طبعة عام ١٩٨٠م: ص ٢٢٤). وقد حفظت رسالتان من رسائل هذا الراهب. وفي رسالته الثانية التي أرسلها من خانبلك في ٨ يناير، ١٣٠٥م يذكر مفتخرا بأنه أسس بعثة كاثوليكية (مع أن إنجازاته تحوم حولها الشكوك على ما يبدو):

لقد بنيت كنيسة في مدينة كامبليك Cambaliech [أو خانبلك أو بكين] حيث يقيم الملك بصفة رئيسة ... وأقوم بتعميد الناس باستمرار. كما اشتريت بالتدريج أربعين ولداً من أبناء الوثنيين تتراوح أعمارهم بين السابعة والحادية عشرة، ممن لا دين لهم. وهنا قمت بتعميدهم وتعليمهم اللاتينية وطقوسنا...

كما يذكر أيضاً ما أكده بالدوتشي بيغولوتي فيما بعد. فبعد أن دعا رجال الكنيسة الآخرين إلى الانضمام إليه، ضمن لهم سلامتهم:

أما بالنسبة إلى الطرق [عبر آسيا الوسطى] فأخبركم بأن الطريق البرية التي تعبر أراضي كاثي [وردت كوثي]... هي أكثر أماناً وأمناً، بحيث يستطيع المسافر مع المبعوثين [أي الرهبان] الوصول في غضون خمسة أو ستة أشهر. أما الطريق الآخر فهو أطول وأخطر لأنه يشمل رحلتين بحريتين: الأولى تعادل المسافة بين عكا وبروفنس، والثانية تعدل المسافة بين عكا وإنجلترا ... ونادرا ما يستطيع المسافر قطعه في سنتين. لكن الطريق الأول لم يكن آمنا لمدة طويلة بسبب الحروب. (مقتبس في دوسون، ١٩٥٥م، طبعة، ١٩٨٠م: ص ص ٢٢٥–٢٢٦).

وكان جون المونتي كورفيني في الثامنة والخمسين من العمر حين كتب هذه الرسالة، وقد تعلم لغة التتار نطقاً وكتابة وترجم العهد الجديد وسالتر كاملاً إلى تلك اللغة.

لم يكن جون المونتي كورفيني الإيطالي الوحيد في الصين. فلدينا وثيقة تتحدث عن طبيب من لومبارد Lombard وصل إلى خانبلك عام ١٣٠٣م (بيتك، ١٩٦٢م: ص ٥٥٣)، ورسالة تعود إلى عام ١٢٣٦م من أندرو البيروجي Andrew of Perugia وهو أسقف في ميناء زيتون الشهير، الذي يذكر كثيراً من أهل جنوة الذين يعيشون هناك

(التفاصيل والنص في دوسون، ١٩٥٥م، طبعة ١٩٨٠م: ص ص ٢٣٥-٢٣٧). وكان لتجار جنوة وظائف دبلوماسية أيضاً. "يعد أندالو دي سافينيون Andalo de Savignon من أبرز الشخصيات في المستعمرة الجنوية في الصين ..." وقد ورد اسمه للمرة الأولى عام ١٣٣٦م حين أرسله إمبراطور يوان طوغون تيمور Toghon Temur سفيرا إلى البابا (بيتك، ١٩٦٢م: ص ٥٥٤) لكن الاتصالات المباشرة سرعان ما انقطعت، إذ تشير الوثائق إلى أن آخر مرة سلك فيها التجار الجنويون الطريق البرية إلى كاثي كانت في عام ١٣٤٤م، حين نظرت إحدى المحاكم، بحسب ما تشير إليه السجلات، في قضية تركة تاجر وافاه الأجل وهو في الطريق (بيتك، ١٩٦٢م: ص ٥٥٥). كما كانت البعثات الدبلوماسية على وشك التوقف أيضاً.

في عام ١٣٣٩م أرسل البابا آخر مبعوثيه عن طريق آسيا الوسطى حين انطلق الراهب الفرنسيسكاني جيوفاني دي مارينيولي Giovani de' Marignolli من نابولي إلى كافا تمهيداً لرحلته البرية إلى بكين (بيتك، ١٩٦٢م: ص ٥٥٥). لكن إمبراطورية المغول كانت في ذلك الوقت في حالة انهيار بعد أن فتت في عضدها حركات العصيان وأنهكها انتشار الأوبئة. والآن جاء دور المغول ليبحثوا عن حليف لهم. وقد حمل إمبراطور المغول تيمور رده الإيجابي إلى مارينيولي الذي انطلق عائدا إلى بلاده في عام ١٣٤٥م يرافقه مائتان من الحراس والجنود. لكن الطريق لم تعد سالكة في تلك الآونة بعد أن قطعتها الحروب الأهلية في بلاد شاغاتايد Chaghataid. وفي إشارة إلى أن بنية الإمبراطورية الضعيفة كانت على وشك الانهيار، سارت البعثة عبر الصين إلى ميناء زيتون ومنها أبحر مارينيولي إلى الهند والخليج العربي. وكان تقريره هو آخر تقرير عن أوروبي يسلك الطريق بين الصين وأوروبا إلى أن أعاد الدوران حول إفريقيا الاتصال المباشر في القرن السادس عشر.

أما خط سير مارينيولي في رحلة عودته فأخذه عبر مدينتي هانغ شو Hangchow وزيتون الساحرتين، ومن هناك أبحر في ديسمبر عام ١٣٤٥م إلى ميناء قيلون Quilon على ساحل مالابار الهندي فوصله في أبريل عام ١٣٤٦م. ثم أبحر بمحاذاة الساحل إلى هرمز ومنه سافر براً بطريق غير مباشر إلى البحر المتوسط مروراً ببغداد والموصل وحلب ودمشق والقدس قبل أن يبحر إلى قبرص. وأخيرا وصل مارينيولي إلى أفنيون في عام ١٣٥٣م ليسلم البابا رسالة الخان التي تضمنت فيما تضمنته طلب المزيد من الوعاظ المسيحيين (دي ريشفيلتز، ١٩٧١م: ص ص ١٩٧-٢٠١).

لكن البابا لم يلب طلب الخان، وكانت تلك في واقع الأمر نهاية البعثات المسيحية لفترة من الزمن. ولكن ما السبب في ذلك؟ لم يكن السبب انغلاق الطرق المارة عبر آسيا الوسطى وحسب، بل ندرة الوعاظ أيضاً! فقد كان وباء الطاعون آنذاك قد "أخلى الأديرة الفرنسيسكانية في أوروبا (وقد مات ثلثا الرهبان في سنة واحدة)" (دي ريشفيلتز، ١٩٧١م: ص ٢٠٢). ولم يكن الوعاظ آنذاك في مقدمة احتياجات المغول أيضاً. فقد تعرضت الأقاليم الشاسعة التي وحدها جنكيز خان وحلفاؤه إلى التخريب بسبب حركات الانشقاق الداخلية، ومات عدد كبير من سكانها بعد أن فتك بهم الوباء الذي كانوا مسؤولين عن انتشاره إلى درجة كبيرة (مكنيل، ١٩٧٦م).

النتائج الجانبية لنجاح المغول
The Unintended Consequences of Mongol Success

أدى توحيد جزء كبير من الأراضي الأوروبية والآسيوية الوسطى Eurasian تحت حكم المغول إلى الاتصال المباشر بين الأوروبيين والصينيين للمرة الأولى منذ ألف عام. ومن المفارقات الغريبة أن هذا الوضع سهل التبادل التجاري من خلال فتح الطريق الشمالي بين الصين ومنفذ البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط، لكن نجاحه أدى في نهاية الأمر إلى موته (الشكل رقم ٧). فالنتيجة الجانبية للتوحيد كانت تفشي وباء

أعاد تطور النظام العالمي مائة وخمسين سنة إلى الوراء. وحين عاد الانتعاش إلى النظام مجددا في القرن السادس عشر كان شكله مختلفاً تمام الاختلاف.

وقد طور وليم مكنيل فرضيات دقيقة بشأن أسباب انتشار الأمراض وآثارها في تاريخ البشرية، لها علاقة وثيقة ببحثنا الحالي. ويقول مكنيل إنه في مطلع العصر المسيحي، برزت أربع مناطق لأمراض الحضارة المتباعدة" (١٩٧٦م: ص ٩٧) وهي الصين، والهند، والشرق الأوسط، والبحر الأبيض المتوسط (بما في ذلك أوروبا) حيث بلغ عدد السكان في كل منطقة منها بين ٥٠ و٦٠ مليون نسمة (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ٩٣) وقد وصلت إلى توازن نسبي مع بيئتها بما فيها الأمراض المستوطنة. وقد حال توقع كل منها دون انتقال الأمراض "الغريبة" من نظام إلى آخر (أي الأمراض التي ليس لدى السكان المحليين مناعة طبيعية ضدها أو أنماط ثقافية لتجنبها ومعالجتها).

في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، ازدادت الصلات بينها، سواء عبر الطريق البري الذي أطلق عليه الرومان اسم طريق الحرير، أو عبر المحيط الهندي إثر إتقان البحارة فن استغلال الرياح الموسمية.[٩] وعلى أثر تواصل الناس بشكل مباشر بعد عزلتهم الطويلة، ازدادت فرص انتقال الأمراض إلى شعوب لا تملك سبل الوقاية منها، ولاسيما في الصين وأوروبا، "وهما أقل حضارات العالم خبرة في مجال الأمراض" (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ١٠٢). وتشير المعلومات المحدودة التي لدينا إلى انتشار الحصبة والجدري والطاعون Bubonic plague في كل من الصين وأوروبا بين ٢٠٠ و ٨٠٠م، وظهور هذه الأمراض وكأنها عدوى جديدة تصيب جيلا جديدا" (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ص ١٠٣–١٢٠؛ الاقتباس ص ١١٩).[١٠] وشيئاً فشيئاً يبدو أن التأقلم مع الأمراض سلك مسلكين متوازيين في أوروبا والصين، ومن حوالي ١٠٠٠م لم يبدأ شعب في التوسع في المناطق الواقعة على الأطراف، (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ١٢١). لكن هذا التوازن واجه تحدياً جديداً في القرن الثالث عشر بعد أن توطدت العلاقات مجدداً.

ويرى مكنيل أن النجاحات التي حققها المغول، أسهمت في مد جسور جديدة بين هذه المناطق المنعزلة نسبياً، مما سهل انتشار الأمراض الخطيرة والتي كان آخرها وباء الطاعون الذي تفشى في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

كانت إمبراطوريات المغول وهي في أوجها في الصين ... وروسيا ... وآسيا الوسطى، وإيران، والعراق .... [يتصل بعضها ببعض] بوساطة شبكة اتصالات تضم رسلا قادرين على السفر مسافة مائة ميل في اليوم على مدى أسابيع دون توقف ... وبالإضافة إلى طريق الحرير القديم الذي يقطع الصحراء، أصبحت القوافل، والجنود، وحملة البريد يسافرون عبر الأراضي العشبية المفتوحة. فقد أوجدوا شبكة بشرية إقليمية هائلة ربطت قيادة المغول في قراقورم بقازان وأصطراقان على نهر الفولغا، وبمدينة كافا Caffa في القرم، وبخانبلك [بكين] في الصين، وبالخانات والفنادق الأخرى المنتشرة بينها. وهذا الامتداد الشمالي لتجارة القوافل كانت له من وجهة النظر الوبائية نتيجة بالغة الأهمية، فقد حصل تلامس بين القوارض البرية المنتشرة في السهول وبين حاملي الأمراض الجديدة، ومنها، وهو المرجح، الطاعون. (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ١٣٤).

ويبني مكنيل السيناريو التالي، الذي يجمع فيه بين المعلومات المأخوذة من مصادر نصية متفرقة من العصر والدليل المستمد من الأبحاث الطبية الحديثة حول انتقال الوباء.

من المحتمل أن تكون عُصية الوباء مستوطنة بين مستعمرات القوارض في منطقة جبال الهيمالايا بين الصين والهند وبورما، لكن السكان اكتسبوا مناعة ضدها بسبب تعرضهم لها من قبل، وأصبح لديهم وقاية منها بسبب أنماط ثقافية مكنتهم من تجنبها. وقد بقيت منطقة التركيز هذه معزولة تقريباً عن المناطق الأخرى بمساحات شاسعة غير مأهولة، وببعض الأنهار والحدود الطبيعية الأخرى (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ١٤٠) إلى أن قدم دخول المغول إلى يونان Yunnan وبورما بعد عام ١٢٥٢م الوسيلة لتصدير عصية الوباء. أما المغول فلم يكن لديهم مناعة ضد المرض، كما شكلت مطاياهم وسيلة سريعة لانتقال العصيات من البراغيث حاملة المرض إلى الفئران في جحورها تحت أراضيهم العشبية (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ١٤٢) حيث استطاعت البقاء حية حتى في فصل الشتاء القارص.

SCANDINAVIA
Novgorod
Volga
Nizhni Novgorod
Bulgar
Moscow
MUSCOVY
BRITAIN
GERMANY
POLAND
Cracow
Bruges
Paris
EUROPE
Kiev
Dnieper
Rostov
Ural
Sarai
Tana
FRANCE
ATLANTIC OCEAN
ALPS
Venice
Genoa
ITALY
Danube
Black Sea
Caffa
Caspian Sea
Aral Sea
SPAIN
Constantinople
Trebizond
ASIA MINOR
Tabriz
Merv
Mediterranean Sea
Aleppo
Rayy
Silk route
Herat
Baghdad
Isfahan
Damascus
Alexandria
Basra
PERSIA
AFRICA
Cairo
EGYPT
Hormuz
Red Sea
ARABIA
Muscat
Jidda
Mecca
Aden
Pilgrim
MONGOLIA
MANCHURIA
Yellow R.
Peking
Ningsia
Hwang Ho
HOPEI
Yellow Sea
Taiyuan
SHANSI
Lanchou
KANSU
SHENSI
Chinan
Tsing-tao
SHANTUNG
Kaifeng
Loyang
HONAN
KIANGSU
ANHWEI
Xian
SHECHWAN
Chengtu
HUPEI
Wuchang
Chungking
Yangtze
Hangchow
CHEKIANG
HUNAN
Changsha
Nanchang
KIANGSI
FUKIEN
Fuchow
KWEICHOU
KWANGSI
Zaytun
TAIWAN
YUNNAN
KWANTUNG
Canton
Nanning
South China Sea

الشكل رقم (٧). التوافق بين طرق التجارة وانتشار وباء الطاعون في حوالي عام ١٣٥٠م.

ولا يعتقد مكنيل (١٩٧٦م: ص ١٤٣) أن وباء الطاعون انتقل مباشرة إلى منغوليا، لكنه بدأ عام ١٣٣١م في المناطق الداخلية من الصين ثم انتقل منها إلى الطريق البري حتى وصل إلى البحر. ويضيف مكنيل قائلاً:

إن الاحتمال الأكبر على ما يبدو أن يكون الوباء قد داهم الصين عام ١٣٣١م قبل انتقاله إلى طريق القوافل في آسيا في السنوات الخمسين التي تلت ووصوله إلى شبه جزيرة القرم عام ١٣٤٦م حيث انتقلت العصية إلى السفن ومنها إلى جميع أنحاء أوروبا والشرق الأدنى على امتداد الطرق المتشعبة براً من الموانئ البحرية. وربما حدثت حركة موازية نحو "مدن" القوارض تحت سطح الأرض العشبية بين ١٣٣١ و١٣٤٦م حيث وجدت العصية موطناً دائماً في أثناء انتقال الوباء من خان إلى آخر في طول آسيا وعرضها وشرق أوروبا. وقد اجتمعت كل هذه الظروف معا في منتصف القرن الرابع عشر. وتفشى الوباء عام ١٣٤٦م بين جيوش الأمير المغولي الذي حاصر مدينة كافا التجارية في شبه جزيرة القرم، مما اضطره إلى الانسحاب، لكن العدوى كانت قد انتقلت إلى مدينة كافا ذاتها، ومنها انتشر الوباء عن طريق السفن في جميع أرجاء البحر الأبيض المتوسط (مكنيل، ١٩٧٦م: ص ص ١٤٥–١٤٧).

وعلى الرغم من عدم توافر ما يكفي من المعلومات لإثبات ما يقوله مكنيل أو لدحضه، إلا أن روايته مقنعة، وتؤيدها معظم الدلائل إن لم نقل كلها.[١١]

في الباب الأول لاحظنا أن إنتاج المنسوجات الفلمنكية عانى من المصاعب في أواخر العشرينيات من القرن الرابع عشر، وأن الانكماش الاقتصادي قد بدأ فعلاً يصيب دوائر المصارف الإيطالية بحلول أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينات من القرن الرابع عشر، مع أن الوباء لم يكن قد ظهر آنذاك. كما لاحظنا قبل الجزء الخاص بالتجار والمبشرين في إمبراطورية المغول، أن ذكرهم بدأ يتلاشى في أواخر الثلاثينيات من القرن الرابع عشر، وأنه اختفى تماماً في منتصف ذلك القرن. ولن نجانب المنطق إذا ربطنا هذه الاضطرابات بتراجع التجارة البرية بين المنطقتين. وعلينا أن نذكر أن مارينيولي، وهو آخر إيطالي نعرف أنه كان في الصين من خلال المدونات، أجبرته الظروف المضطربة في الداخل على أن يسلك الطريق البحري الطويل في رحلة عودته إلى بلاده عام ١٣٤٥م على الرغم من أن الطريق البري كان هو المفضل في بداية القرن.

وليس من المستبعد وجود علاقة بين عدد الوفيات التي أحدثها المرض في الصين بدءا من عام ١٣٣١م وما بعده وضعف حكام المغول الذي تركهم هدفاً لحركات

التمرد المتزايدة. فلو كان السلام المغولي أحد العوامل المهمة في توطيد العلاقة بين التجار الأوروبيين والصين، فإن أي اضطراب في تلك البيئة يعرض أمنها للخطر سواء لأسباب عسكرية أم صحية يمكن أن يضعف التجارة وبالتالي يقلل من درجة الرفاهية بين الشركاء. وللبحث في هذه الفرضية يمكننا أن ننظر إلى مدن القوافل الفعلية على امتداد الطرق التجارية، التي ربما كانت سمرقند أهم مدنها.

سمرقند ومراكز القوافل الأخرى
Samarkand and Other Caravan Centers

التجارة البرية مسألة معقدة. ونستخلص من جميع المصادر أن هذه التجارة مدينة باستمرارها لنشاطات عدد كبير من الوكلاء، بعضهم باعة متجولون، لا يستقرون في مكان، ويستثمرون مبالغ ضئيلة من المال نسبيا وبمرونة مطلقة تعتمد على ما يمكنهم شراؤه رخيصاً في مكان معين وبيعه غالياً في مكان آخر. كان بعضهم من كبار المصرفيين التجار الذين لا يبرحون موطنهم، بل يقرضون المال إلى الجوالين، ويبرمون معهم عقود *القِراض commenda*، أو يشرفون على عدد كبير من "العملاء" شبه المستقلين الذين كانوا أشبه بصغار الباعة المتجولين. وأخيراً نجد الفئة التي تتأرجح بين هذين الطرفين، والتي قد تبدأ صغيرة، لكنها تتطور لتصبح إمبراطوريات في التجارة النائية.

ومن الممكن تصنيف متطلبات التجارة البرية في فئات ثلاث: المادية والسياسية والمؤسساتية. أما المتطلبات المادية فهي سهلة التعداد، لكنها قليلة التأثير نسبياً على حجم التجار، فلا بد للطرق أن تكون سالكة، ولا بد من وجود وسائل النقل. ففي الطريق البري الشمالي الذي يمتد مسافة خمسة آلاف ميل من طرف إلى آخر، لا يمكن ضمان أي من هذين العنصرين. فنوعية الطرق التي تجتاز الأراضي الوعرة، ووجود الاستراحات في نقاط منتظمة في المناطق قليلة السكان، وإمكانية الحصول على الماء والمؤن اللازمة لرحلة

طويلة قد تستغرق أشهراً عدة، وربما سنوات إن أراد المسافر التوقف لممارسة التجارة وهو في الطريق، كل ذلك يعد من المتغيرات المادية التي تعتمد بدورها على أحداث أخرى. ودعونا نلق نظرة على بعض العوامل التي قد تعوق هذه الرحلة.

في الأراضي القاحلة يعد الماء أهم العناصر بلا استثناء. والحيوان الأليف الذي يستخدم في حمل الأثقال في مثل هذه المناطق هو الجمل، فهو قادر على العيش على النباتات الصحراوية القليلة وعلى الصبر على العطش مدة ثلاثة أيام أو أربعة، كما يستطيع أن يحمل حوالي ٥٠٠ رطل لمسافات طويلة، لكنه يسير بسرعة ثابتة لا تزيد على ثلاثة أميال في الساعة. (انظر ويلارد Wellard ١٩٧٧م: ص ص ١١-٣٧ للاطلاع على وصف مفصل). وهكذا نرى أن المسافة القصوى بين المستوطنات، أو بين الآبار على الأقل، يجب أن لا تزيد في الأوضاع المثالية على مائة ميل على اعتبار أن المسافة المقطوعة هي ثلاثون ميلا في اليوم، وأن المدة الزمنية بين مورد ماء وآخر هي ثلاثة - أربعة أيام. وقد قيدت هذه المتطلبات اختيار المسالك في آسيا الوسطى إلى حد كبير. فهي لم تحدد مسبقا طريقا بعينه، لأن هناك عادة بدائل عدة.

وفي الجبال المنتشرة في طول تلك المنطقة وعرضها مجموعة مختلفة من الضروريات الملحة. فالسفر في المناطق الجبلية يحتاج إلى حمير تحمل الأثقال، ولا بد من اختيار مسالكها بعناية للاستفادة من أخف المنحدرات وموقع الممرات. وليست كلمة "اختيار" بالكلمة المناسبة في هذا المقام، فالطرقات الجبلية تترسخ، بالتجربة والخطأ، على امتداد المسالك اليسيرة، وتحددها بشكل كامل الشعاب الرئيسة. ومن الضروري وجود عدد أكبر من الموارد المائية، لكنها موجودة عادة في الجداول الجبلية.

وأخيراً، نرى أن حجم السفر عبر السهول يحدد مدى سلاسة الطريق ذاته لأن الطرق غير الممهدة تظل قاسية، وكلما كثر المسافرون سهل عبورها. وتزداد الحوافز لنمو المستوطنات عند تقاطع الطرق الرئيسة، وهذه بدورها، تساعد على وضع الطرق

في مواقع ثابتة. وهكذا فإن معالم الطرق العظيمة عبر آسيا رسمت من خلال عناصر مادية.

لكنها كانت تتأثر بصفة خاصة بالعوامل السياسية أيضا. فتوحيد آسيا الوسطى تحت حكم المغول كان مهما لتوجيه التجارة اجتماعياً ومادياً. صحيح أننا لا نستطيع أن نصف الطرق الرئيسة الممتدة من الشرق إلى الغرب بأنها طرق عامة، لكنها خضعت إلى تحسينات جوهرية نتيجة حركة خيل المغول المنتظمة فوقها سواء أكانت خيل الجيوش أم خدمات نقل البريد والاتصالات. وفي النهاية، كانت هناك شبكة طرق حقيقية فيها محطات للاستراحة ونقاط ازدهرت حولها الخانات والفنادق. والأهم من هذا وذاك، أمن الطريق الذي وفرته أخيراً إدارة منتظمة وموحدة.

ويصعب علينا اليوم إدراك مدى اعتماد التجارة على تقليص المخاطر، أو نسبة تكاليف ضرائب العبور المفروضة على السلع، والإتاوة أو الابتزاز الصرف. ومن سوء الحظ أننا لا نملك أية أرقام من القرن الثالث عشر تمكننا من تقدير نسبة تكاليف النقل التي تدفع نظير الحماية. لكن بناء على الدليل المتوافر من القرن السابع عشر فإنه، على الأقل فيما يخص الجزء الواقع في أقصى الغرب من الطريق البري، استنتج نيلز ستينز جارد Steensgaard (١٩٧٣م: ص ص ٣٧–٤٠) أن تكاليف الحماية (بما فيها الضرائب) فاقت بنسبة كبيرة تكاليف النقل الرخيصة جداً ذاتها. ويبدو أن الفارق بين تكاليف الشراء والنقل وأسعار البيع بالجملة شاسعاً جداً، لكن من الواجب أن نحسب القيمة المضافة مثل ضرائب العبور والمخاطر التي تتعرض لها البضائع بسبب المصادرة أو الضياع، أو بسبب شراء بضائع لم يحسن التاجر تقدير أسعارها في السوق تقديراً صحيحاً.

ومن المؤكد أن النظام الذي نجح المغول في فرضه خفض كثيراً من هذه التكاليف، هذا بصرف النظر عن أن سخاءهم تجاه التجار وحسن استقبالهم شجع المزيد من التبادل التجاري عبر أراضيهم. لكن من الواضح أن هذه التجارة أخذت

تبحث عن طرق بديلة بمجرد اختفاء هذه الظروف المواتية كما حدث في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

أما المتغير الثالث فله علاقة بترتيبات المؤسسات الخاصة بالتجارة. فمع أننا سنعالج هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في الفصل السابع، لكن من المهم أن نلحظ هنا أن عمليات صغار التجار، وما أكثرهم، على طول طرق القوافل ما كان لها أن تتم، أو على الأقل أن تكون بهذه الدرجة من الكفاءة، لولا آليات الائتمان، وتحويل الديون، وتبادل الأموال بين تاجر وآخر وبين نقطة تجارية والنقطة التي تليها. فالصك (الشيك) (أو بالأحرى أمر الدفع الذي ينفذ في نقطة بعيدة وبعملة مختلفة وفق سعرصرف محدد مسبقاً) اعتمد رسمياً في بلاد فارس أولا، ويبدو أن له علاقة بتجارة القوافل. وكما جرت العادة في مصر فيما بعد، اقتصرت الاستفادة من هذه الوسائل الرسمية على كبار التجار فقط. أما السواد الأعظم من التجار فكانوا يتعاملون بطريقة غير رسمية مستخدمين شبكة أبناء بلادهم (أو ما يمكننا وصفه بأبناء جلدتهم) من أجل تسوية الحسابات التي لم تكن تترجم دوما إلى أموال، بل يمكن تصنيفها ضمن تبادل السلع. ومن العسير أيضاً أن نقرأ تقارير من القرن السابع عشر عن تاجر أرمني متجول، أو مقتطفات من الرسائل التي كان التجار اليهود في الفسطاط في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (حسبما ذكر جواتين، ١٩٦٧م). ويبدو أن لا شيء تغير في طبيعة التجارة.

ومع أن أغلبية النقاط الواقعة على امتداد طريق القوافل كانت قرى متواضعة، أي واحات أو مستوطنات زراعية ترى في قدوم قافلة من الإبل بين فترة وأخرى مناسبة مثيرة مع أنها ليست مصدر رزقها – فإن عدداً من المدن الواقعة على تقاطع الطرق المطروقة كثيراً نمت حتى أصبحت مدنا كبيرة الحجم، وبالأخص إذا كانت تحتل مواقع خصبة ولها أهمية سياسية أو دينية. عندئذ يزداد احتمال ظهور التجارة والصناعة بصفة

دائمة مدفوعاً بالطلب المحلي ومعززاً بالتجارة النائية. ولقد كانت تبريز الواقعة على الطريق الجنوبي أحد هذه الأماكن مثلها مثل بلخ وميرف والمدن الأخرى الواقعة على الطريق الشمالي. لكن إذا فكر المرء في المدينة الواحة بامتياز تبادرت إلى ذهنه على الفور سمرقند (وبخارى بدرجة أقل). وربما كانت سمرقند المدينة التي تمر بها جميع القوافل بلا استثناء بفضل قرب موقعها من نقطة التقاء الطريق بين الشرق إلى الغرب والطريق من الشمال إلى الجنوب بين الهند وروسيا، ولأنها تقع في أرض خصبة يغذيها نظام ري دقيق من نهر يمر بها. وقد أصبحت سمرقند في نهاية الأمر عاصمة تيمورلنك، لكنها كانت بشكل روتيني على الأقل العاصمة الإقليمية للأسر السابقة. ويقول بارتهولد Barthold (١٩٢٨م: ص ٨٣) عن هذه المدينة:

> كانت سمرقند على الدوام من حيث الحجم وعدد سكان المدينة الأولى في بلاد ما وراء النهر حتى حين كانت بخارى عاصمة المملكة. وترجع هذه الأهمية بشكل رئيس إلى موقعها الجغرافي عند ملتقى طرق التجارة الرئيسة القادمة من الهند (عبر بلخ Balkh)، ومن بلاد فارس (عبر ميرف Mirv) والأقاليم التركية، كما أن خصوبة المناطق المحيطة بالمدينة سمحت لعدد كبير من السكان بالتجمع في مكان واحد.[١٢]

كانت سمرقند من أقدم مدن آسيا الوسطى، وقد استمدت أهميتها التجارية من موقعها عند ملتقى الطرق التجارية مما جعلها قبلة الأنظار. فقد احتلها الإسكندر الأكبر عام ٣٢٩ ق.م. وتعاقب على حكمها فيما بعد الأتراك، والعرب، والفرس. ومع توسع انتشار القبائل المغولية والتركية نحو الغرب، كان من المحتم أن يتطلع هؤلاء إلى الظفر بثرواتها. وفي القرن الحادي عشر، فتحها القرخانيون Karakhanids ومن بعدهم السلاجقة؛ كما حكمها القرا خيت Kara Khitais في القرن الثاني عشر، ثم خضعت في بداية القرن الثالث عشر إلى سيطرة ملوك خوارزم قبل أن يطردهم منها جنكيز خان عام ١٢٢٠م. وإذا ما أخذنا موقع سمرقند الاستراتيجي في الاعتبار بدت لنا على الفور شدة

تحصينها. ويقدم لنا ابن الفقيه أول وصف لمدينة سمرقند المسلمة، فيقول إنها والمناطق المحيطة بها، مثلها مثل بلخ وبخارى، "محاطة بسور (طوله اثنا عشر فرسخا)[١٣] وفيه اثنتا عشرة بوابة. ويحيط بهذا السور سور آخر حول المدينة ذاتها يحتوي بدوره على منطقة مسورة ثالثة تسمى شهرستان وفيها المسجد الكبير والقلعة المسورة حيث قصر الحاكم" (بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ٨٤). ويؤكد الجغرافيون العرب من القرن العاشر أن الشهرستان كان مسوراً قبل العصور الإسلامية (بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ٨٥). أما الامتداد العمراني في المدينة فكان هائلاً لضرورة الحفاظ على المساكن والمزارع ضمن حيز واحد مشترك. ويقول الإصطخري إن جزءاً كبيراً من المساحة كان مخصصاً للبساتين، وإنه كان لكل منزل بستان خاص به، وإذا ما نظرت إلى المدينة من أعلى القلعة لما تمكنت من رؤية المساكن لكثرة الأشجار في البساتين" (حسبما ورد في بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ٨٨).

وبرغم القصص المريعة عن الفظائع التي ارتكبها جنكيز خان وجيشه في أثناء فتحهم المدينة وارتكابهم جرائم جماعية وعمليات تهجير الحرفيين – إلا أن المدينة استطاعت الصمود. زد على ذلك أن شهادة شاهد عيان يصف سمرقند عام ١٢٢١م تناقض صورة الأرض المحروقة، فهو يتحدث عن استمرار الحياة في المدينة، ولو على نطاق أضيق من ذي قبل. وقد كتب هذا الوصف أحد تلامذة الراهب تانغ تشون – الطاوي Taoist الذي استدعاه جنكيز خان عام ١٢١٩م ليلقنه تعاليم دينية. فبين عامي ١٢٢١ و١٢٢٤م تنقل السيد والتابع في الأقاليم المسلمة. وقد قام برتشنايدر Bretschneider (١٨٧٥م، ١ : ص ص ٣٥–١٠٨) بترجمة سي يو كي Si Yu Ki التي يعود تاريخها إلى عام ١٢٢٨م. وفي نهاية عام ١٢٢١م دخلا مدينة سمرقند التي وصفت بأنها واقعة على حدود قنوات مائية. "فعلى اعتبار أن المطر لا يهطل في الصيف أو الخريف، حول الناس نهرين إلى المدينة، ووزعوا الماء في سائر الشوارع بحيث يستفيد منه كل منزل من المنازل." (برتشنايدر، ١٨٧٥م، ١ : ص ص ٧٧–٧٨).

ويستخدم بارتهولد هذا الوصف لإظهار أن "الحياة هناك [في سمرقند] رغم ما لحق بها من دمار على يد المغول، تابعت مسيرتها. وحين يعلو صوت المؤذن بالأذان، يهرع الرجال والنساء إلى المساجد لأداء الصلاة ... أما الذين لا يؤدون هذه الفريضة فيلقون أشد العقاب. أما في ليالي رمضان، فكانت تقام الولائم كالمعتاد. (بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ٤٥١) لكن السي يو كي تقدم لنا نظرة أقل بريقاً، إذ تبين أن ربع السكان الأصليين تركوا على قيد الحياة بعد الغزو، وأن السكان المسلمين منعوا من بيع أراضيهم، وأجبروا على العمل فيها تحت إشراف القره خيطان والصينيين، وأن العمال الصينيين يعيشون في كل مكان" (برتشنايدر، ١٨٧٥م، ١: ص ٧٨). وفي ربيع عام ١٢٢٢م، عاد تشانغ تشون وتابعه عن طريق سمرقند، لكنه لا يعطينا سوى معلومات عرقية – جغرافية إضافية (بعضها لا يخلو من الغرابة).

لكن معلوماتنا شحيحة عن المدينة خلال السنوات المائة والخمس وأربعين التالية حين أصبحت المدينة عاصمة المغول الإقليمية. لكن من المؤكد أن المدينة ازدهرت لازدهار التجارة مثلما ازدهرت شقيقتها بخارى التي ارتبطت بها بوساطة "طريق ملكي" سمح للمسافرين بقطع المسافة بينهما في ستة أو سبعة أيام (بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ٩٦). كانت بخارى، مثلها، مثل سمرقند، مدينة قديمة من مدن القوافل حيث حل بها التجار العرب محل التجار المجوس بعد الفتح العربي (بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ١٠٨). وفي العصور السامانية Samanid كانت هي الأخرى مقسمة إلى قلعة، وشهرستان، وربَد (وردت هكذا-المترجم)، ولكل منها سوره الخاص. (بارتهولد، ١٩٢٨م: ص ١٠٠)، كما كانت المدينة، مثلها مثل سمرقند، مروية بقنوات مائية تتفرع من نهر جار. ويصف المقدسي النظام المائي خلال العصور العربية قائلاً: "يدخل النهر المدينة حيث البوابات المائية الخشبية. وفي فصل الصيف – وهو فصل الفيضان، تنزع العوارض الخشبية الواحدة تلو الأخرى بحسب ارتفاع الماء ..." (حسبما ورد في بارتهولد، ١٩٢٨م: ص

١٠٣) أما الرخاء في المدينتين فكان يعتمد على الدولة، لا بسبب مائها وحسب، بل — وهذا هو الأهم — بسبب الرخاء الاقتصادي والسياسي في المنطقة بأكملها. وعلى اعتبار أنهما كانتا أساساً أماكن لاستراحة القوافل، فقد اعتمد انتعاشهما في نهاية الأمر على كثافة الحركة كما هي الحال في محطات الاستراحة الصغيرة الأخرى. لكن عدد المتوقفين للاستراحة ما لبث أن تراجع كثيراً.

أما سمرقند فتمكنت من البقاء بوسائل أخرى بعد تدهور حال التجارة، إذ استطاعت المدينة في الواقع اكتساب المزيد من الأهمية وفي وقت قصير. ففي الثلث الأوسط من القرن الرابع عشر، دبت الفوضى في صفوف القوات المغولية وباطراد، لا بسبب الانشقاقات الداخلية وحسب، بل بسبب الأمراض الفتاكة التي تفشت بين صفوفها. فقد ثار المحكومون في مختلف أنحاء الإمبراطورية، وأسفر التمرد في الصين عن الإطاحة بأسرة يوان وتسلم أسرة منغ Ming زمام السلطة في عام ١٣٦٨م. أما في سمرقند، فكانت النتائج مختلفة، حيث كان تيمورلنك — وهو من المغول — المستفيد الأول من التمرد (أي تيمور الأعرج المعروف في الغرب باسم Tamerlane). ولد تيمورلنك على مقربة من سمرقند، ويقال إنه من سلالة شاغاتي ذاته Chaghatai، وقد سطع نجمه أول الأمر في أحداث عام ١٣٥٧م التي شهدتها بلاد ما وراء النهر وتبع هذه الأحداث اضطرابات شديد، لكن النتيجة كانت واضحة، على الأقل بالنسبة إلى سمرقند، ففي عام ١٣٧٠م، أعلن تيمورلنك نفسه الملك الجديد (الذي سيعيد تشكيل) إمبراطورية المغول، وقد أطلق هذا الإعلان في سمرقند التي أصبحت عاصمته المتميزة.

وهكذا نرى أنه في أقسى الظروف الاقتصادية التي شهدتها في آسيا الوسطى، أي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تحسنت حال سمرقند بالنسبة إلى منافساتها. ففي عهد تيمورلنك، أصبحت سمرقند أهم مركز ثقافي واقتصادي في آسيا الوسطى

حيث جمع الحرفيين من منطقة واسعة، لا لإنتاج السلع والبضائع اللازمة لحياة البلاط المترفة وحسب، بل لتنفيذ بعض الأعمال الهندسية أيضاً التي مازالت باقية حتى اليوم. وانطلقت جحافل تيمورلنك من سمرقند في شتى الاتجاهات لإعادة تجميع أجزاء الإمبراطورية التي شملها السلام المغولي السابق. فالوحدة التي تحققت تحت قيادة جنكيزخان وحلفائه جلبت السلام إلى مملكته وشجعت السفر والتجارة، وأما الوحدة التي حققتها وحشية تيمورلنك وجيوشه فكان لها تأثير معاكس، إذ قطعت الطرق العابرة للأراضي الآسيوية، وضيقت الخناق على التجارة وحشرتها في قنوات ضيقة اضطرت معها إلى اجتياز عدد من المضائق قبل الوصول إلى المحيط الهندي.

في الفصلين السادس والسابع سنبحث في هذه الممرات البديلة نحو الشرق، لكن قبل أن ننتقل إلى مناقشة محوري الخليج العربي والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي، لا بأس من التوقف قليلا للنظر في عدد من العبر المستخلصة من الغزو المغولي.

العبر المستخلصة من الغزو المغولي
Lessons from The Mongol Case

من أهم العبر المستخلصة أن دور الاقتصاد بوصفه عامل تسهيل يعتمد على القدرة على فرض سيطرته على مساحة واسعة هو عامل غير مستقر بصفة رئيسة، لأنه خاضع للتقلبات السياسية والديموغرافية التي تحدث بمحض الصدفة. فعملية التوحيد في حد ذاتها لا تخفض بالضرورة تكاليف النقل، لكنها قادرة على ذلك وفق اختيارات السياسة المتبعة. فالإسهام الرئيس الذي تقدمه إدارة تقوم على "النظام والقانون" هو تخفيض رسوم الحماية المفروضة على البضائع. فمن خلال القضاء على جامعي الإتاوة المتنافسين، ومن خلال تنظيم المكوس، يمكن للتوحيد أن يجعل تكاليف النقل محسوبة. وبالإضافة إلى ما تقدم، يمكن للتوحيد أن يخفض عنصر المخاطرة من خلال القضاء

على المخاطر الناجمة عن البشر، ولو أنه لا يستطيع القضاء على الكوارث الطبيعية مثل الجفاف الذي يجفف الآبار وموارد المياه. فالتجارة تزدهر ما دامت هذه الميزات مضمونة. أما إذا انعدم الأمان في الطرق، بحث التجار عن طرق بديلة أخرى.

وثمة مظهر آخر من مظاهر عدم الاستقرار ينشأ من الطبيعة الطفيلية للإتاوة بوصفها أساساً للدولة. فالمغول لم يكونوا تجاراً ولا منتجين، لذلك اعتمدوا إلى حد كبير على مهارات الشعوب التي غزوها وقواهم العاملة من أجل تأمين لوازم حياتهم، وهذا يعني أن رعاياهم كانوا يزودونهم بالوسيلة التي يستخدمونها لاستمرارهم في طغيانهم. لكن اقتصاداً بهذا التنظيم لا يمكن أن يكون اقتصاداً منتجاً. فالمصلحة الذاتية المستنيرة قد تفرض تشجيع التجارة والصناعة، وشيئاً من الإحجام عن الاستيلاء على الفائض، أما مطالب الدفاع فلها ضروراتها. فإذا ما ازدادت، وجب عندها البحث عن مصادر جديدة من الفائض.

أما العامل الثالث من عوامل عدم الاستقرار فيأتي من استمرار الحاجة إلى التوسع الجغرافي. فالمغول، مثلهم مثل الملكة الحمراء، ما كان باستطاعتهم أن يركنوا إلى الهدوء. فالتوسع في الفائض يتطلب فتح المزيد من الوحدات المنتجة. فإذا عجز النظام عن غزو شعوب جديدة، فقد استقراره، ومال نحو التقلص. وهذا التقلص يطلق دورة انهيار متسارعة. فلو انخفضت تكاليف السيطرة ربما ثارت الشعوب المستكينة الواقعة في الأسر. أما إذا ازدادت إجراءات القمع، فإن الإنتاج قد يتأثر لأن انتزاع الفائض بلغ ذروته. وأمام عدم الاستقرار الكامن هذا فإن أية صدمة جديدة قد تطيح بالنظام المتزعزع.

ظهرت الصدمة في الثلث الثاني من القرن الرابع عشر حين تفشى وباء الطاعون الذي بلغت سرعة انتشاره أعلى درجاتها بين أكثر عناصر المجتمع تنقلا ألا وهو الجيش. وقد أدى ضعف المغول بشرياً إلى إضعاف قدرتهم على السيطرة على المناطق الخاضعة

لحكمهم والتي بدأت في التمرد الواحدة تلو الأخرى. وقد فجرت حركات التمرد هذه اضطرابا في الإنتاج والاستيلاء على الفائض وهي ما كان الحكام يعولون عليه، وأدت بالتالي إلى تراجع القدرة على قمع حركات التمرد. فعملية الاستيلاء على الحكم إذا ما بدأت، لا يمكن إيقافها.

ومع تفشي الوباء في بقية أجزاء النظام العالمي، فتر الاندفاع نحو ممارسة التجارة النائية، ولو أنه لم يختف تماماً. وحين انتعشت التجارة من جديد، شرع صغار التجار في البحث عن طرق أكثر أمناً. ولم تعد تلك الطرق هي التي تعبر مفازات آسيا الوسطى وقفارها الموحشة؛ فالمخاطر القليلة، ورسوم الحماية الزهيدة على امتداد ذلك الطريق ولت إلى غير رجعة.

الهوامش
Notes

١- لم يدَّع بلدوتشي بيغولوتي Baducci Pegolotti على الإطلاق أنه قام بهذه الرحلة بنفسه. لكنه لا يتردد مطلقاً في أن يؤكد لقرائه أن "الطريق الذي تسلكه من تانا Tana إلى كاثي مأمونة تماماً، سواء أسافرت ليلاً أم نهاراً، بحسب روايات التجار الذين سلكوا تلك الطريق" (يول Yule ١٩٢٤م، ٢ : ص ٢٩٢).

٢- يقدم لنا بارفيلد Barfield (١٩٩٠) تفسيراً مغايراً، فهو يرى أن قبائل آسيا الوسطى قبل جنكيز خان كانت تفضل "دفع الإتاوة" على الغزو المباشر، لذلك عقدت صفقات مع حكومة الصين بعدم الغزو. لكن هذا التفضيل لا يمكن أن يكون أكثر من محل تخمين. فربما أرادوا الغزو لكنهم كانوا أضعف من تنفيذه.

٣- من الطريف أن نقرأ ما كتبه رشيد الدين حول خلفاء جنكيز خان (بويل Boyle، ١٩٧١م: أماكن متفرقة). إن قيم المجتمع وصورة "الحاكم المثالي" التي تبرز من

خلال الحكايا والأمثال الشعبية تدحض الأنماط التي رسمها المسلمون والأوروبيون عن المغول بوصفهم برابرة. فالعدل والحكمة والسخاء هي من أهم الصفات التي يحترمها الناس. كما أن الصفة الأخيرة تتمثل بشكل روتيني من خلال تعامل الخانات (أباطرة المغول) مع التجار الأجانب الذين كانوا يتلقون ثمن بضائعهم أكثر من قيمتها الفعلية. وقد عبر الأخوان بولو عن سعادتهما في قرارة نفسيهما من سذاجة بيركه Berke (لاتام، ١٩٥٨م: ص ٢٢)، لكن أباطرة المغول يبدو أنهم كانوا ينظرون إلى كرمهم على أنه أعلى درجات النبل.

٤- إن المؤرخ الإنجليزي ماثيو باريس Matthew Paris (١٢٠٠ — ١٢٥٩م) الذي وضع كتابه عام ١٢٤٠م يفند بالتأكيد هذين التعريفين (انظر النص المقتبس في بويل، ١٩٧٠م، طبعة ١٩٧٧م: ص ٦ — ٧).

٥- قارن مثلا الشروحات في دي راشفيلتز (١٩٧١م) بتلك في لاتش Lach، ١٩٦٥م).

٦- انظر جي. فوبورسانجر J. Voporsanger "رحلات بينيامن التوديلي في القرن الثاني عشر The Travels of Benjamine of Tudela in the Twelfth Century" نشرة الجمعية الجغرافية في كاليفورنيا ج ٢ Bulletin of the Geographical Society of California II (مايو ١٨٩٤م: ص ص ٧٧ — ٩٦).

٧- إن صفات الكياسة والضيافة والانفتاح على التجارة تتعارض بشكل واضح مع فكرة "رجال الجحيم" لكنها متكررة في سياق مذكرات ماركو بولو.

٨- "التجار الإيطاليون في إمبراطورية المغول Les marchants italiens dans l'empire mongol (بيتك Petech ١٩٦٢م: ص ص ٥٤٩—٥٧٤).

٩- وصل أول التجار الرومان إلى الصين عام ١٦٦م بحسب رواية مكنيل (١٩٧٦م: ص ١٠١).

١٠- مكنيل (١٩٧٦م) يذهب إلى حد القول إن الضعف الذي أصاب القوات الفارسية والرومانية بسبب تفشي الطاعون، سهّل صعود الإسلام في القرن السابع؛ لكن لا بد لنا من توخي الحذر حين نعزو التغيير إلى الأوبئة بصفتها قدراً محتوماً. زد على ذلك أنه من الضروري أن نلحظ أن لجوء مكنيل إلى حجة تفشي الوباء في تفسيره لصعود المجتمعات وانحدارها ضعيف ولاسيما حين تطبق على الإقليمين في المنطقة الوسطى – أي الهند والشرق الأوسط – حيث لم تنقطع الصلة قط.

١١- وضع أحد المؤرخين الصينيين لي مخططا للمعلومات التي وردت في ملحق مكنيل عن التواريخ والأماكن وتفشي الأمراض. وليس لافتراضات مكنيل فيما يخص الفترة التي نحن بصددها ما يؤيدها – على اعتبار أن المرض بدا على أنه ينتشر فورا باتجاه الشرق بعد ظهوره في المناطق الداخلية للمرة الأولى. انظر الشكل رقم ٧.

١٢- يرى بارتهولد (١٩٢٨م: ص ٨٨) أنه كان هناك حوالي ١٠٠٠٠٠ أسرة في المدينة قبل غزو جنكيز خان. "إذا أخذنا في اعتبارنا أن المدينة كانت قد تعرضت للدمار قبل ذلك بسنوات على يد خوارزم شاه، وأن عصر القره خانية كان بصفة عامة عصر انحطاط في الثقافة وبالتالي في الحياة المدنية أيضاً، أمكننا بلا مبالغة أن نخمن أن سمرقند السمانية كان فيها أكثر ٥٠٠٠٠٠ نسمة." وأنا على يقين من أن هذه مبالغة، بالنظر إلى قاعدة المدينة الاقتصادية. وكما سنرى لاحقاً فإن القاهرة العصمة بوظائفها المتعددة لم تحقق هذا العدد إلا لمدة وجيزة حين بلغت أوجها.

١٣- الفرسخ هو المسافة التي يقطعها البغل في ساعة من الزمن، مما يجعل ترجمته إلى مقياس خطي أمراً صعباً. لكنه يقدر بصفة عامة بثلاثة أميال على أرض منبسطة.